نهاية تاريخ ونهاية أيديولوجيات

نهاية التاريخ بعد مرور أكثر من عقد على إعلانها
في لقاء مع فرنسيس فوكوياما

حوار و تقديم: ادريس هاني

- **سأفترض للإيديولوجيا مقومين، أحدهما حقيقتها الزائفة إزاء الواقع، والأخرى ضرورتها الوظيفية بالمنظور الاجتماعي... هذا على الأقل ما كشف عنه النقد الأيديولوجي منذ الازدراء النابوليوني التاريخي بالأيديولوجيين، مرورًا بماركس وكارل مانهايم وانتهاءً بالتوسير وريكور، قصدنا من ذلك أن نتساءل في ضوء مقولتكم حول نهاية التاريخ الذي يبدو وكأنه وعيد بنهاية حتمية للأيديولوجيات؟ هل معنى هذا أن هناك بالفعل تاريخًا لنهاية مسلسل الزيف؟ أم أن أيديولوجيا ما، غالبة ستفرض زيفها على التاريخ في نهاية المطاف بقوة الحضور والإكراه؟ هل سيكون الرجل الأخير رجلًا راشدًا بالفعل، بمعنى أننا سنواجه نهاية حتمية للرجل الخطاء؟**

- أظن أن رؤيتي تختلف قليلًا عما ذكرتموه لأنني أؤمن بوجود نظام معين في التاريخ تقوده الليبرالية الاقتصادية والسياسية وقواها الفاعلة التي تنتهي إلى شكل معين من أشكال الاجتماع البشري. ولا أعني بذلك أنني أنطلق من تصور ماركسي أو نمذجة هيغلية للتاريخ، لأنني أرى في ذلك نوعًا من الرؤية القووية للتاريخ. إنه ممر ضيق ذو مراحل جد مختلفة من التاريخ البشري، في حين أعتبر أن تصوري للتاريخ هو أقل قووية وأكثر مرونة، فمثلًا أعتقد أن التحديث الاقتصادي غالبًا ما يؤدي إلى مرتبة أعلى من الليبرالية السياسية وتوسيع دائرة المشاركة السياسية إلى أن تصبح هذه المجتمعات في صف الريادة. هذا من جهة وأعتقد أن الديمقراطية الليبرالية تصبح وتتخذ شكلًا عقلانيًا للاعتراف في ثقافة هذه المجتمعات التي تمرست على هذا النوع من النظام السوسيو – اقتصادي. ومع ذلك فهي ليست الشكل الوحيد للاجتماع البشري أو للجماعات، ولا النوع الوحيد للقيم. وربما هذا يقود إلى السلم السياسي بأسلوب عقلاني وسلمي. وبالرجوع إلى سؤالكم وعن ما أشرتم إليه من أن نظرية نهاية التاريخ هي أيديولوجيا، فإني أقول: ليست أيديولوجيا بالمعنى الذي حملته تسمية أيديولوجيا منذ زمان، إن نهاية التاريخ هي أكثر

من ذلك، إنها وصـــف وتحليل للأســـلوب وللطريقة التي يتغير بها العالم ويطور بشـــكل أمبريقي نظامه السياسي في الزمان.

- **تحاول مقولة نهاية التاريخ أن تقدم نفسها بوصفها نهاية لجدل المثل الحالمة، أو لنقل، الأشباح العالقة بالمعرفة. لكنها بالمعايير المنطقية تظل حلمًا ويوتوبيًا تســـتقوي على العقل بضـــرب من الحجاج يســـتند إلى لحظات ســـكر القوة الليبرالية في أي مســـاحة من مســـاحات هذا الحلم النيوليبرالي المهجوس بالنهايات، يمكن أن يقيم حلم الإنسانية المعذبة بالعدالة الاجتماعية؟**

- لم أقل يومًا ما ولم أعني بنهاية التاريخ يوتوبيًا معينة. لقد قلت فقط كيف يمكن تخيل طريق وأســـلوب مختلف للتنظيم السياسي والمؤسسات الديمقراطية الليبرالية عبر الزمان لكي تجعل من الناس أكثر سعادة فقط، وهذا لا يعني أن الكل سيكون سعيدًا كما لا يعني أن الناس سيتوقفون يومًا عن الحلم. لأنه من الأكيد سيوجد أيضا الظلم وعدم المساواة ومشاكل أخرى لها علاقة ومدخلية في المجتمع الليبرالي.

لكن الإشكالية المطروحة هي، هل باستطاعتك حل هذه المشاكل دون مؤسسات ديمقراطية ودستور حديث، مثلا عن طريق منع الانتخابات ومنع التعددية الحزبية الديمقراطية، والحد من حرية التعبير. في حين أرى أنه من اللازم اتباع أسلوب ونوع آخر في التعبير، أسلوب يؤدي إلى حل هذه التناقضات ثم وضعها جانبًا.

- **إن تاريخ البشرية هو تاريخ متواصل لأجل البحث عن الاعتراف، هكذا أكد هيغل، وهكذا تأكد في مقولتكم "النهاياتية". هل تقيدون النزوع إلى الكرامة والاعتراف بختم الرجل الأخير؟ ألا ترون في النزاعات التي تحدث اليوم في عالمنا ضـــد الهجمة الإمبريالية الجديدة برســـم الحرية والديمقراطية المغشـــوشـــة أو على الأقل المرهونة بالســـباق الاســـتراتيجي وهجاس "المولنة" الاقتصادية، أنها نزاعًا في اتجاه البحث عن الاعتراف؟**

- حســنًا، حقيقةً إن هذا مشــكل كبير وعويص في المجتمعات الليبرالية، وهو كيف نحصــل على الاعتراف ونقيمه في هذه المجتمعات بشـكل حقيقي، لأنه وقبل كل شـيء، هناك فقط نوع من الاعتراف الصـوري والشــكلي للبعض، ولأنك ككائن بشــري في حاجة إلى حق، وإن كان صــوري للمشــاركة الســياســي والتصويت والتعبير عن الذات، ولكن وبطريقة لينة – Softly – فإن شكل المجتمعات المعاصرة يحددها موقعها في التراتب الذي يتحكم فيه الســـوق وعوامل أخرى كثيرة. ومن الطبيعي أن يوجد هناك بعض الناس الذين يتذمرون من مثل هذا الوضع. وأعتقد أن هذا ضروري في طريق الاعتراف. الإشكالية الثانية،

هي بعض من الناس، الأخيرين، لا يرغبون في المساواة في الاعتراف، يحبذون الاعتراف بمن له ثروة وتراكم أكبر، وهذا مؤثر آخر. الإشكالية الأخيرة للرجل الأخير هو أنه سيحاول في المجتمع الليبرالي تحقيق نمو ديمقراطي لكل أفراد وطبقات المجتمع. إن المساواة ثمن أيضًا، وفي ظروف معينة لن تقبل ولن يتحقق الرضى عن هذا النوع من الاجتماع، فالناس سيشعرون بفراغ روحي ولاشيء سيملأ هذا الفضاء.

- **بين الأيديولوجيا " النهاياتية" الفوكويامية، والأيديولوجيا "الصداماتية" الهنتغتونية، مسافة الشرخ المنظوري في الاستراتيجية الأمريكية أو لنقل هما طرفا الشفاه الشرماء للأرنب البري الأسطوري كما في تأويلية ستراوس؛ زهو الانتصار، والإحساس بالرهاب..هل لنا أن نتعرف على طبيعة هذه المسافة؟**

- أرى الأمر أكثر بساطة وسهولة من هذا. لأن هنتنغتون لا يؤمن بوجود نوع من القيم الكونية أو الثقافية أو حتى المؤسساتية. في حين أنني أعتقد أن الرغبة في العيش في مجتمع حديث هي رغبة كونية. وبالنتيجة العيش في حضارة كونية الديمقراطية الليبرالية ليست محددة بثقافة معينة ولا تقتصر على شعب دون آخر. رغم أنه من الجدير القول أن الديمقراطية تتطور اليوم في الغرب المسيحي، لكن أظن أن هناك مشاريع في آسيا وفي بعض البلدان الإسلامية في أفريقيا لأن الديمقراطية الليبرالية هي الشكل الأكثر ملائمة مع الطبيعة البشرية كنظام كوني مرغوب فيه. في حين أن هينتنغتون يقول بوجود حضارات متعددة ذات خصائص كاملة.

- **إلى أي حد تبدو لكم أيديولوجيا نهاية الأيديولوجيات، اختراعًا ممهورًا بسكر الغلبة العسكرتارية والانبعاث الفيكتوري. هل ترون في الملحمة النيوليبرالية بزعامة الرئيس بوش، آلية لتحقيق هذه النهاية أو بتعبير آخر، هل ترى بوش قريبا من مقولة نهاية التاريخ أم من مقولة صدام الحضارات؟**

- لا أعتقد بوجود ارتباط مع أي من النظريتين، فالاستراتيجيا الأمريكية لا تؤمن بالتراتب. أكيد ومن الواضح أن بوش لديه تصور كوني يخص الرغبة والنزوع إلى الحرية. لكن إذا ما نظرت إلى السياسية الخارجية يصبح ذلك الحس تبسيطيًا في مقارباته للقضايا والمشكلات في العالم. صحيح أن الرغبة في الحرية هي أمر كوني وعام كما هو المجتمع الليبرالي لكن ذلك يتطلب إنشاء مؤسسات ويتطلب وقتًا، إنه مسلسل صعب. إن التقدم الاجتماعي ينتهي بوضع شبيه بتجربة الحياة في المجتمع الحديث وأعتقد أن ذلك ليس أمرًا يمكن تحقيقه بقوة السياسة الخارجية وبالسلطة، إنها تجربة تتطور عبر مراحل طبيعية تاريخية

ولا يمكن فرضـــها بقوة. ربما بوش، بســـياســـته الحالية يثير نوعًا من القلق والإحالة على نظريتي في نهاية التاريخ كما يمكن له أن يثير نظرية صـدام الحضـارات لهينتينغتون. لا يقصـد ذلك مباشـرة بطبيعة الحال، لكن مثل: طريقة معالجة الإرهاب في العالم ربما تزيد من دائرته وتغديه. لهذا أعتقد أن ذلك خطير جدًا، كما أظن أن الهدف النهائي جيد لكن طرق تحقيقه ليست كذلك.

- **ماذا بعد أكثر من عقد على مرور أول إعلان عن مقولة "نهاية التاريخ" .. هل لازلتم تتطلعون إلى هذه النهاية أم أن كبوة الرجل الأخير بدأت ترخي بظلال اليأس على كل التوقعات الأمريكية.. ما الذي تغير إذن؟**

- من الواضح أنني سأكون ذاتيًا في قراءة النظرية. لكن يمكنني القول تجاوزا أن " الجهاد" – Jihadisme – ومفاهيمه هي التحدي الأساسي لليبرالية، لأنه نوع مغاير من الأيديولوجيا، وربما الأشرس. لكن أظن أنه في النهاية لن يكتب له النجاح على الأقل سياسيًا. هذا على مستوى التحدي الأيديولوجي. هناك تحدي من نوع آخر، وهو عدم قدرتنا على تحقيق نمو اقتصـــادي في عدة بلدان فقيرة، الغالبية منها في إفريقيا، وبدون نمو اقتصـادي من الصـعب إيجاد نظام ديمقراطي ليبرالي ومؤسـسـات. أخيرًا أظن أنه لدينا مشـــكلًا مع الديمقراطية على المســـتوى العالمي. لدينا ديمقراطية على مســـتوى الدولة – الأمة، مثلًا: مؤسـسـات في بريطانيا أو الولايات المتحدة، لكن على مستوى العلاقة بين البلدان ليسـت هناك آليات للتنســـيق. وأظن أن هذا أحد أكبر المشـــاكل التي تواجه الولايات المتحدة والعالم، وكذلك المشـــاركة الديمقراطية. كما أنني لازلت أؤمن بالتحديث وبمسـلسـل المنافسـة الذي يقود إلى الديمقراطية السـياسـية. وبالرجوع إلى السـياسـة التي تنهجها الإدارة الأمريكية سـواء في صـيغتها القديمة أو الحالية، فإنها سـياسـة خاطئة بالكامل. لأنها تتخذ القوة سبيلًا لتشريع التقدم والتطور الاقتصادي في حين أن هذا التطور يقوم على عوامل داخلية أولًا endogène وإلا فســـتغرق في بحر من المشـــاكل.. لهذا يجب توخي الحذر الشـــديد قبل نهج مثل هذه الســـياســـات. ولدي انطباع، أننا أمام خطر إذا لم نلغ ردود الفعل المتبادلة، وأعتقد أن الولايات المتحدة قد بالغت في ردة فعلها بعد أحداث سبتمبر، في حين يجب أن نكون أكثر عقلانية بالنظر إلى موقعنا في العالم اليوم، وبإمكاننا نهج ســياســة جديدة الآن. وأظن أن ســؤالكم فيه الكثير من الصحة، لأنه بالفعل هناك العديد من العوامل المشتركة في الحضارات والثقافات المختلفة والتي يمكن أن تقود إلى مسـلسـل التحديث. مثلًا هناك أدبيات مهمة مقارنة مع أسـيا التي تأقلمت مع طبيعة العمل الرأسمالي. هناك أيضـــا مشـــاكل ناتجة عن العولمة. والتي أدت إلى الانكفاء على القيم الخاصـــة للمجتمعات. لكن كل الدول التي نجحت في مســـلســـل التحديث هي الدول التي اســـتطاعت تجاوز ثقافتها. وأتاتورك، كان له هذا المشـــروع الكبير والطموح للحداثة الهندية– التركية، أظن أن هناك العديد

من مصادر التحديث، لكنه مسلسل كوني، وكما قلت أن النزوع للعيش في المجتمع الحديث تتقاسمه جميع شعوب العالم وإن كانت تسندها قيم خاصة ليست بالضرورة قيم غربية، لأنتهي بالقول أن هذا المسلسل ليس غربيًا خالصًا. والخطأ الذي ارتكبته إدارة بوش أنها لم تستطع استيعاب كون التحديث ينبع من الداخل، فأشاعت نوعًا من الكراهية ضد الولايات المتحدة في العالم. وأظن أن التقرير الثالث حول التنمية البشرية في العالم العربي، أثار مواضيع الإصلاح السياسي ومختلف المشاريع في الشرق الأوسط، لكن أظن أن هناك صدمة خارجية هي التي أدت إلى تحريك الوضع. ولا أقصد هنا تبني نظرية الصدمة الخارجية، لكن يجب العمل جميعًا من أجل حل مثل هذه المشاكل العالقة، وعلينا أن نتذكر أن دولة جنوب شرق أسيا قد مرت خلال مسيرتها التنموية بنظم شمولية ومتسلطة قبل أن تنفتح على النظم الأيديولوجية. ويجب التأكيد على أن هذه الحالة تقتصر على دول أسيا، لأن النظم الشمولية في الدول الأخرى لم تستطيع إبداع مشاريع للنهوض الاقتصادي، إذن ليس هناك لا نمو اقتصادي ولا ديمقراطية في هذه الحالات.